

الحارث بن أسد المحاسبي

(١٦٥ - ٢٤٣هـ)

أ/ هاجر جاد الحق

زخر التاريخ الإسلامي على مر الأزمنة والعصور بعلمائه النابهين، الذين جعلوا همهم وغايتهم الارتقاء بأنفسهم وأمتهم والوصول بها إلى أعلى مراتب الهداية، فكانوا للهدى أئمة، وللخير قادة، وللبشر حكماء. وكان من هؤلاء العلماء: «أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، البصري الأصل، الزاهد المشهور»^(١)، أحد علماء القرن الثالث الهجري، وأستاذ أكثر البغداديين في عصره، ومن كتبه: (آداب النفوس)، و(المسائل في أعمال القلوب والجوارح)، و(الرعاية لحقوق الله عز وجل)، و(كتاب التوهم) و(رسالة المسترشدين)، ومن كلامه: «خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم»^(٢).

مولده وبيئته التي نشأ فيها:

ولد المحاسبي في البصرة بالعراق عام ١٦٥ للهجرة تقريبا، ولكنه قضى جل حياته في بغداد^(٣)، وقد كان مولده في أواخر خلافة المهدي، وهو من أوائل الخلفاء العباسيين، وعندما تولى هارون الرشيد الخلافة كان المحاسبي قد بلغ من العمر خمس سنوات، وكانت الأمة الإسلامية حينئذ غنية بالعلماء والمفكرين البارعين، وخاصة في رحاب

العاصمة بغداد، وكان ممن اشتهر منهم في علوم الشريعة: الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩هـ، وأبو يوسف المتوفى سنة ١٨٢هـ، والشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ، وفي الأدب والشعر: الجاحظ المتوفى سنة ٢٢٥هـ، وأبو نواس المتوفى سنة ١٩٩هـ، وفي الحديث: الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ. ومجرد ذكر هذه الأسماء يكفي للدلالة على عمق الحياة الفكرية في هذه الفترة^(٤).

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)- تحقيق: إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ٥٧/٢.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٧٣/١٠. وانظر: الأعلام- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)- دار العلم للملايين- ط ١٥٥، ٢٠٠٢م، ١٥٣/٢.

(٣) انظر: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي - أ.د/ عبد الحليم محمود - دار المعارف - القاهرة، ص ٢٩.

(٤) انظر: السابق: ص ٣٤، ٣٥.

تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة، أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيّل المكث في العمى. فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي، ووقفت عند اختلاف الأمة مراتداً لطلب الفرقة الناجية، حذراً من الأهواء المُردية والفرقة الهالكة، متحرزاً من الافتحام قبل البيان، وألتمس سبيل النجاة لمُهجة نفسي...»^(٦).
 ووجد المحاسبي نفسه في النهاية في معسكر أهل السنة على وجه العموم، وفي تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص.

شخصيته وحياته:

أوتي المحاسبي -رحمه الله- بياناً ناطقاً، مع التقوى والخوف من الله -تعالى-^(٧)، وقد أخذ المحاسبي نفسه بتحقيق صفة العبودية لله -تعالى-، على أساس من القرآن الكريم، والسنة الشريفة، لا يحيد عنه. وإنه ليعبر عن شعاره في ذلك، فيقول هذه الكلمة التي تصفه حالاً ومقالاً: «إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجيب داعي الله؟ ومن استغنى بشيء دون الله، جهل قدر الله»^(٨). وكان -رحمه الله تعالى- كثير المحاسبة لنفسه^(٩) فلقبه أهل زمانه بالمحاسبي. ومن النوادر التي وردت عنه في كتب التراجم، ما قاله تلميذه الجنيّد (المتوفى ٢٩٧ هـ): «كنت كثيراً أقول للحارث: عزلتي أنسي، تخرجني إلى وحشة رؤية الناس والطرقا؟ فيقول لي: كم تقول أنسي وعزلتي؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنسا، ولو أن النصف الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم»^(١٠). فيستشف من هذه القصة أن

وكان المحاسبي قد قدم إلى بغداد في تلك الفترة، وكانت سنه إذ ذاك مبكرة نسبياً، وكانت بغداد حينئذ تموج بمختلف التيارات الفكرية: ثقافة يونانية وافدة. وثقافة فارسية يحاول الفرس نشرها، بما لهم من تأثير ونفوذ، وبما لهم من مال وثناء وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى، تريد أن تجد حلاً للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية. وثقافة إسلامية بحتة تجاهد في أن تفوز بقيادة المجتمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهي^(٥).

جاء المحاسبي بغداد متعلماً مثقفاً، فتشعبت به الطرق، وتجادبته الثقافات المختلفة، ووقف المحاسبي إزاء تلك الثقافات المتنوعة والتيارات الفكرية المتشعبة موقف المدارس المتفحص والمتأمل الناقد، ويحكي المحاسبي عن حيرته الفكرية، وعن أسبابها، وعن كيفية خروجه منها، في مقدمة كتابه الوصايا، فيقول: «فلم أزل برهة من عمري، أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله -عز وجل- بتأويل الفقهاء، وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت في مذاهبها وأقوالها، فعقلت من ذلك ما قدّر لي، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً، غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة، ورأيت كل صنف منهم، يزعم أن النجاة لمن تبعهم، وأن المهالك لمن خالفهم... فقصدت إلى هدى المهتدين، بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النظر، فتبين لي من كتاب الله

(٥) انظر: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي - أ.د/عبد الحليم محمود- ص ١١.

(٦) الوصايا - أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي - تحقيق: عبد القادر أحمد عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط ١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م - ص ٥٩-٦١. (٧) انظر: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي - أ.د/عبد الحليم محمود، ص ١١-١٦.

(٧) مقدمة المحقق للطبعة الأولى لكتاب: رسالة المسترشدين، للمحاسبي - تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة - مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب - ص ١٣. (٨) حلية الأولياء ٧٦/١٠. وانظر: أستاذ السائرين، ص ٧.

(٩) انظر: طبقات الفقهاء الشافعية تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١ هـ) - المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو - هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٣ هـ، ٤٣٨/١.

(١٠) تاريخ بغداد وذيوله - أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣ هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، ١٤١٧ هـ - ٢٠٩/٨، و طبقات الشافعية الكبرى، ٢/٢٧٦.

كتبه:

للإمام المحاسبي كتب كثيرة في الزهد، وفي أصول الديانات، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما، وكتبه كثيرة الفوائد جملة المنافع، وقد بلغت كتبه من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بنحو مائتي مصنف^(١٥)، وهي في أغلبها الأعم في هداية النفوس، وترقيق القلوب، وفي الإنابة إلى الله، والرجوع إليه، وفي الرعاية لحقوقه-تعالى-، وفي التصوف والسلوك. ومن كتبه المخطوطة في دور الكتب: كتاب المسائل في الزهد والتصوف، وكتاب المراقبة، وكتاب العلم، وكتاب الصبر والرضا. ومن كتبه المطبوعة: كتاب التوهم، ورسالة المسترشدين، وكتاب الوصايا، وكتاب الرعاية لحقوق الله-عز وجل-، وكتاب أدب النفوس، وكتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح، وكتاب فهم القرآن^(١٦).

وفاته:

كانت وفاته-رحمه الله- ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومئتين. ويروى أنه حين حضرته الوفاة قال لمن حوله: «إن رأيت ما أحب تبسمت إليكم، وإن رأيت غير ذلك تبسنتم في وجهي»، وأخبر رجل ممن حضروا وفاته أنه رآه «ابتسم ثم مات»^(١٧).

المحاسبي كان ذا شخصية إيجابية قوية.

ومما يستأنس به أيضا تأييدا للقصة السابقة، ما رواه الجنييد أيضا بقوله: «كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا فيقول: اخرج معنا نصحر»^(١١)، فأقول له: تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات، والأفات ورؤية الشهوات؟ فيقول: اخرج معي، ولا خوف عليك، فأخرج معه، فكأن الطريق فارغ من كل شيء، لا نرى شيئا نكرهه، فإذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه، قال: سلني، فأقول له: ما عندي سؤال أسألك، فيقول لي: سلني عما يقع في نفسك، فتثال علي السؤالات، فأسأله عنها، فيجيبني عنها للوقت، ثم يمضي إلى منزله، فيعملها كتباً»^(١٢).

وكان المحاسبي-رحمه الله- صاحب عبقرية نابهة، وبصيرة نفاذة وكان على معرفة ودراية بخبايا النفوس البشرية، وكانت له معرفة عميقة لأسباب وآثار ووسائل علاج الرذائل التي تنتهي إلى ارتكاب الذنوب^(١٣)، فكان أول من أنشأ ونظم ما يمكن أن يُطلق عليه: (علاج النفس) أو (العلاج النفساني للشعر)، حتى قال عنه الأستاذ ريتز: «إن المحاسبي في الواقع هو منشئ مبادئ التحكم الأخلاقي المنظم في الذات في إطار التقوى الإسلامية»^(١٤).

(١١) أي نذهب إلى الصحراء.

(١٢) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى:

٧٤٨هـ)- تحقيق: عمر عبد السلام التدمري- دار الكتاب العربي، بيروت- ط٢، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ٢٠٦/١٨.

(١٣) انظر: موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، ص٢٤١. وانظر: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي- أ.د/ عبد الحليم محمود، ص٤٧.

(١٤) هلموت ريتز: الإسلام، ج٢١، ص٣٢، نقلا عن: أ.د/ عبد الحليم محمود، من كتابه: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي - ص٤٨.

(١٥) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ٢/٢٧٦. وانظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال- يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف،

أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)- تحقيق: د. بشار عواد معروف- مؤسسة

الرسالة - بيروت - ط١، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ٢٠٩/٥.

(١٦) انظر: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي- أ.د/ عبد الحليم محمود، ص١٧-١٩.

(١٧) انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ٨/٢١١.